ابن الطبيعة

هذه قصة خيالية ولكنها ممكنة جداً وفي كل يوم تحدث حوادث تضاهيها وتكون عبرة وعظة للمتعظين . فلا بدع إذا تعجب القارئ .

— ما لك يا أخي سليم مقطباً اليوم ، ما ذا جرى لك ؟

— تكيد كيدك ثم تسألني ما ذا جرى . تبًّا لك من أخ خبيث .

فاستغرب يوسف تعنيف أخيه الذي لم يعهد مثله من قبل وهو لا يدري سبباً له . وقال : تقول كيدي ؟ ما ذا تعني يا أخي ؟

— لعلك تتجاهل أنك وشيت بي لأبي إني قضيت معظم السهرة مع الراقصة نعيمة . فغضب عليَّ غضباً شديداً وتوعدني .

— ويحك ! أما كنت تفكر أن أباك رقيب عليك بنفسه ويعرف كل حركة من حركاتك لأنه يعلم ما أنت فيه من غيّ . فلا يتوقع وشاية بك من أحد حتى يغضب عليك . وإذا علم أنك لم تعد إلى البيت إلا بعد الثانية من نصف الليل فاذا يظن غير أنك كنت منطرحاً في ضلالك .

— بلى . علم من فمك ما أنا فيه من ضلالة وإلاّ لما كان يسهر حتى يعلم متى أعود الى البيت

— سيان علم مني أو من نفسه بزيفانك وانغماسك في شهواتك . أتظل تتمادى في سلوكك المشين هذا لا هياً عن دروسك حتى تسقط في امتحاناتك .

— صه . لست ولي أمري حتى تؤنبني .

— بلى . إني أخوك الأكبر . وليَّ أن أنبهك الى غوايتك حرصاً على مصلحتك .

— اخرس . لا تقل إنك أخي . فما أنت أخاً ولا أنت ابن العدني

فبهت يوسف واستهجن هذه النعمة التي يرتلها أخوه عليه . أليس هو ابن أبيه جميل العدني ؟ انها لسبّة لعينة . كيف يجسر أن يتفوّه بها . فنزق به قائلاً : صمتاً . أتجسر أن تنطق بهذه الزعقة أمام أبيك ؟ بن من أنا إذن يا قبيح ؟

فهزّ سليم رأسهُ هزة وحرية وقال : لا أدري . سل عن أصلك

فسخط به يوسف : ويحك. ما هذا الخاط الذي تخاط . أخبرني ما ذا تعلم عن أصلي وأصلك .

— لا أعلم إلاّ أنك لست أخي

— أنّى لك هذا العلم الجديد الذي أجهله يا رذيل . مهلاً. سأدينك أمام أبينا يا وغد

— لا تهددك هذه الدينونة شيئاً . خيرٌ لك أن تسأل عن أبويك .

فاشتدّ غضب يوسف وأمسك به وهزّه وقال ساخطاً : قل من أين اخترعت هذا الإفك يا رذيل . أخبرني ما الذي أوحاه إليك .

— الحقيقة أوحته إليّ . لست أخي ولا أنت ابن العدني . إنك تقاسمني هذه الأبوّة الكريمة منذ الطفولة . حسبك ما تمتعت بها إلى اليوم

فذهل يوسف لأنه رأى أخاه سليما يجدّ فيما يقول، ولا بد أن يكون لهذه القالة الدنسة أصلٌ أو سبب . ولما انقشع ذهوله لم يجد سليماً أمامه . فدخل الى مخدعه وانزوى فيه يفكر في طوارىء الزمان . داخله شكٌّ في نسبه . أيمكن أن لا يكون ابن جميل العدني وحيلة زوجته ؟ وإذا لم يكن ابنهما فابن من هو ؟

عصفت في نفسه عاصفة سوداء من الهم والاضطراب . تطلعت في نفسه وعوده الآنكار العاتقة، كاد يرى نفسه كأنه سقط من فضاء العدم الى هذا العالم لا أبٌ ولا أمٌ ولا اخوة ولا أنساء وأقارب . ما سكان الواحة الضيقة في صحراء مترامية الأطراف بأشقى منه في وحدته في كرة الأرض .

* * *

بعد برهة استدعى أمه الى مخدعه وسألها : قولي لي ابن من أنا ؟

فأجفلت أم يوسف قائلة : ويحك ما هذا السؤال السمج .

— نعم أود أن أعلم ابن من أنا

— عيب يا بنيّ . أفي العشرين من عمرك توجّه هذا السؤال لمحجر الذي حضنك والصدر الذي ضمك ؟

— نعم أود أن أعرف الصدر الذي أرضعني والبطن الذي حملني .

— ويحي . اذا قيل لك قرابك في أبويك ؟ هل سمعت أكذوبة من أحد صدقت ؟

— بل سمعت صدقاً من سليم فلم أستطع أن أكذّب . فأود أن أعرف الحقيقة من فمك الصادق .

"عند ذلك" دخل جميل الأب عليهما يقول : اني أسمع نقاشاً بينكما في أمر ذي بال . فاخبراني ما الخبر

فقالت جميلة : وانكبتاه ! يسألني يوسف من أبواه . فلا أدري من رمى له بكلمة مزاح مبهجة فأقامته وأقعدته .

فنظر جميل في ابنه يوسف نظرة اخترقت صدره حتى نفذت في فؤاده وقال : أي مهزار خبيث أرابك في أبويك يا ابني فزرع فتنة بيننا .

— ليس الفتان غريباً عنا يا أبتاه، هو سليم ابن البيت الحقيقي، قال لي اني دخيل هنا وأني مقاسمه نعمة من أهله لا حقّ لي فيها . فأرجو أن تخبراني من أي عالم مجهول التقطتماني . فأود أن أعود اليه .

فقال جميل : كل مولود يأتي من عالم مجهول . من يستطيع أن يعود الى عالمه المجهول الاّ حين يقضي الى رحمة ربه

فقال يوسف محرجاً أباه : أجل كل مولود يعرف من ولده إلاّ أنا . وقد عرفت اليوم انكما لستما والديّ، واني دخيل عندكما .

— هل تراك أحط منزلة من سليم عندنا . بل ألا ترى أنا نحبك عنه أحياناً . فكان هو أجدر منك بهذا الشك .

— لكن سليماً نفسه قال لي اني لست ابن أبويّ . فعليّ أن أبحث عن والديّ الحقيقيين . لا يمكنه أن يستنبط هذه الحقيقة من أم رأسه . فلا بدّ انه عرفها قديماً أو حديثاً . واليوم دعاهُ الداعي لأن يبوح بها لي . لايجرأ سليمٌ أن يفضحها إذا لم يكن واثقاً من صحتها

فزفر جميل قائلاً : أين سليم هذا . ادعيه يا أم يوسف . أود أن أعلم كيف اختلق ذلك الخبيث هذه الأكذوبة الكافرة

فقالت جميلة متململة كئيبة . ياويلتاه ! ليس هو هنا الآن . ولا أدري الى أي داهية مضى . انه يفتعل لنا كل يوم صداعاً

فقال جميل مزمجراً : لم أعد صابراً على غوايته . ساضعه في مكانه . لا تعره يابنيّ يوسف أذناً صاغية . أنت ابننا أولاً وهو ابننا ثانياً . ونحن واضعان فيك كل آمالنا . لا تضلل بالك بهذه الأكذوبة الشيطانية . اعكف على دراستك والله معك

ثم قبله وخرج فتبعته جميلة زوجته الى حجرتها حيث جعلا يتهامسان .

• • • •

قال جميل كيف تبش سليم هذا السر الدفين ، من قاله له ؟ ونحن قد احتطنا كل احتياط لكي ندفن السر في أعماق الغيب . غيّرنا إسمنا وانتقلنا من بيئة تعلم أنه لا ولد لنا الى بيئة أخرى علمت أن لنا طفلاً . وعلم أصدقاؤنا الجدد أنه صار لنا طفلٌ كما يصير لكل الناس . فما عرف أحدٌ بأننا اقتنينا لقيطاً وجعلناه إبناً لنا . فكيف طلع هذا السر من قرارة المجهول .

فقالت جميلة : لعلّ عبلة أختك فرطت منها كلمة ، فهي ثالثة العارفين منا

— لا أظن عبلة تفرّط بكلمة بعد عشرين سنة . وهي كانت شريكتنا في دفن السر . على أي حال يجب أن نكابر ونجحد هذه الظنة .

واجتمع جميل بإبنه سليم وقرّعه تقريعاً عنيفاً لجحد أخيه . واستنطقه رغم أنفه أن يبوح بمن قال له ذلك الافك وألقى في باله ذلك الزور . فخذ سليم للتهديد واعترف بأن عمته العانس عبلة قالته له .

فاستشاط جميل وصرفه من أمامه واستدعى أخته عبلة المقيمة عنده ممزوزةً وعنّفها تعنيفاً شديداً لأنها باحت بالسر لسليم .

فجاشت والدموع الغزار تهطل من مقلتيها : أجل لم أعد أطيق أن ابننا الدخيل يتفوّق هذا التفوّق العظيم في العلم على ابننا الأصيل حتى صار يشمخ عليه ويؤنبه أحياناً لتقصيره في الدراسة ، كأنه وليّ أمره ، حتى صرحنا أنتما أيضاً تميّزانه على سليم في أمور مختلفة . وصار سليم يحس هذا التمييز ويغار . وبات صدره يتقيّأ غلاً وحقداً . فكيف أمنيتي أن يحل الدخيل الغريب محل ابننا الاصيل . نعم يصعب الأمر عليّ جداً . فأخبرت سليماً أن يوسف ليس أخاه بل هو لقيط فتبنّيناه لما يئسنا لأن أمك كانت عقيماً لا تلد . ولما صار بيننا وتعلّقنا به لم يعد يتركانه حتى بعد ان جئت أنت . كذا قلت لسليم . فلا تغضب يا أخي . إن ولدك ولدي .

فقال جميل وقد خفّت ثورة غضبه قليلاً : إني أقدّر عطف فؤادك حق قدره . ولكن ألست ترين أن يوسف نابغة في علمه بشهادة أساتذته وإن سلوكه سلوك الابن البار . وإن سليماً عكسه على خط مستقيم . فكيف لا أميّز ذاك على هذا .

— ولكن هذا ابننا وذاك غريب عنا .

— بل هذا هو إحساس الجسد . ولكن احساس الروح والعقل شيء آخر . إفهم يوسف إلى صدرك عشرين سنة منذ طفولته وسليم سبع عشرة سنة . فقام يوسف في قلوبنا بعلو ثلاث سنين عن مقام سليم . لا تعجبي يا أختي أن الابرين من ربيا لا من ولدا . ولادة الروح

أبرّ من ولادة الجسد . أرجو أن تقتلعي من ذهن سليم هذه الحقيقة الظالمة لكي يستردها من يوسف . إني أذوب وجداً إذا شرد يوسف من بيننا وشاعت هذه الفضيحة .

* * *

ولكن قبل أن تجتمع عبلة بأخيها لكي تتلو تقريعه ويكلفها بهذه المهمة الثقيلة كان السيف قد سبق العزل إذ عاد سليم اليها على أثر نقاشه مع يوسف . وحتّم عليها أن تقول له من هما أبوا يوسف الحقيقيين لأن يوسف أخرجه ولم يصدق أنه دخيل . فقالت له : العلم عند رئيسة الدير . فقدف سليم بهذا الاعتراف إلى يوسف .

أسرع يوسف الى الدير والتمس مقابلة الرئيسة بالحاح فاستقبلته في قاعة الزوّار وهي تتشوّف الى الزائر الشاب الجميل النضير وعلى محياه سطر من التساؤل المقلق المزعج : ماذا عسى أن يبتغي

— سيدتي المحترمة . أعلم أن رسالتك انسانية محضة وإنك صادقة مخلصة فيما تفعلين وتقولين .

— شكراً لفتنتك العظيمة . ماذا عسى أن أخدمك .

— أظنك تتلين لقطاء توجههم الى ملجإ يتصل بديرك .

فظنت أنه يبتغي أن يعرض عليها لقيطاً فقالت : يندر ان أفعل ذلك . وإلاّ فأفعله مكرهة لأن ديرنا لا يقبل لقطاء .

— وأنا أتحقق منك عن النادر الذي فعلته . هل تتذكرين أنك منذ عشرين عاماً أعطيت لشخص ميسور الحال لقيطاً لكي يتبناه ؟

ففكرت طويلاً ثم قالت : عشرون سنة تذهب بذكرى حادث لا شأن لي به إلاّ في يومه ، ثم يُنسى بعد ذلك . وأنت تعلم أن مثل هذا العمل محوط بالأسرار التي يُحظَر كشفها . من كان الشخص الذي تعنيه وما اسمه ؟

وكانت الرئيسة تنظر في يوسف متيقنة ما في قرارة نفسه كأنها أدركت أنه هو اللقيط فقال أتذكرين اسم جميل المدني ؟

— جميل المدني ؟ لا أتذكر هذا الاسم يا سيدي .

وبعد تفكير طويل استأذنته وخرجت وبعد دقائق عادت وفي يدها كتيب كأنه سجل مذكرات . وقالت : منذ عشرين سنة زارني رجل باسم جميل المدني لا المدني .

فأرتعت أسرة يوسف وقال : ربما حدث هذا التحريف البسيط في الكنية عن غير قصد . فلعله هو الشخص بعينه .

— أتعلم إنك تسأل عن سرٍّ محظورٍ إفشاؤه .

— اعلم جيداً واعلم إنك تحفظين هذا السر لقصد شريف وان إفشاءه الآن تمة لهذا القصد الشريف بل هو الباقي عليك من عملك العالج . فأرجو أن تبسطي كل معلوماتك عن سرّ جميل المدني أو المدني لأني في ظني ضلع من اضلاع هذا السرّ .

— ملخص ما في مذكرتي إن هذا الرجل جاء في ذات يوم يقول لي إن زوجته عاقرٌ ولا يريد أن يطلقها . ويستنكف أن يتزوج أخرى لأجل نسل . فيود أن يتبنّى صبيًّا لقيطاً . فقصد اليَّ لهذا الغرض لأنه قيل له أن القطاء يطرحون أحياناً أمام باب الدير . وترك عنوانه لكي أستدعيه إذا عثرت على لقيط . ومن غرائب المصادفات كان كأنه على ميعاد مع لقيط لأنه في اليوم التالي جاءت اليَّ امرأة بطفل تتوسّل اليَّ أن أقبله في الملجإ التابع للدير . فقلت لها أن حظ طفلك لسعيد جداً لأنه جاء في أمس رجل يلوح لي أنه سريٌّ وإنه ذو أخلاق سامية وتمنّى أن يوفّق الى لقيط لكي يتبناه . وتركت المرأة الطفل . وأرسلت خبراً للرجل فجاءني فسلمت هذا كما استلمت من تلك . هذا خلاصة مذكرتي .

— شكراً لمعلوماتك الثمينة يا سيدتي . هل استلمت وسلمت من غير قيد ولا شرط ؟

— تقريباً هكذا . تعهد الرجل ان يربي الطفل تربية صالحة . واشترط أن لا يعرف أهل الطفل مصيره وليس لهم أن يطالبوا به . اما انا فوثقت إنه مصير سعيد للطفل فقبلت الشرط .

— وماذا اشترطت أم الطفل

— لم تشترط شيئاً سوى أن تبقى مجهولة . وكانت بالفعل مجهولة لأنها لم تخبرني شيئاً عن هويتها البتة . فكأنها جاءت من عالم الغيب . وبعد أن سلمتني الطفل عادت الى عالم الغيب .

— أما تركت أثراً ولو عن غير قصد

— بلى تعمّدت أن تترك أثراً للطفل . لأنها بعد نحو شهر من الزمان عادت اليَّ وفي يدها هذه الحلية . وهي كما ترى قلب ذهبي بسلسلة ذهبية . وقالت إنها تود أن تعطي الطفل هذا التذكار حيث هو ، وإن تحفظ معه له حيث هو . وقصدت أنا بعد ذلك الى عنوان جميل المدني فقيل لي انه انتقل من هناك الى منزل مجهول الجيران . وقال بعضهم إنه رحل الى الاسكندرية . فبقيت هذه الحلية معي الى اليوم تنتظر ما يفعله القدر بشأنها .

فتناول يوسف القلب الذهبي من يد الرئيسة وجعل يقلبه بين يديه الى أن قال : أتسمحين لي به بثمن .

— إن كنت انت الذي كان ذلك الطفل فهو لك وإلاّ فما هو لك .
— ماذا تريدين اثباتاً على إني كنت ذلك الطفل .
— هل أنت واثق إنك كنته ؟
— كل الثقة . لأن قصة ذلك الرجل المسمى جميل المدني تطابق كل المطابقة قصة جميل المدني .
— إذاً فأنا واثقة بقولك والقلب لك . خذه وإنما أرجو أن تعطيني ايصالاً بأنك تسلمته .
فكتب يوسف لها إيصالاً كما رغبت . ثم سألها . أما عادت إليك المرأة بعد حين تسأل عن الطفل .
— بلى عادت بعد ثلاثين تسأل عنه لكي تطالب به فقلت لها انه في الصيف ضيّعت اللبن ، لأن الذي تبنّاه اشترط أن لا أبلغ أحداً أين صار مصيره . ناهيك عن ان عنوانه تغير ولا أعرفه . وقد توارى في احياء القطر . فعادت خائبة .
— أما أمكنك أن تعرفي شيئاً من هذه المرأة وعن مكانها أو اسمها إلى غير ذلك ؟
— كلاّ البتة . هي السر المجهول الذي لا أستطيع الوصول إليه . هي اللغز المغلق . لغز أعمق من لغز متبنّي الطفل .
— شكراً عظيماً لك يا سيدتي . لقد تفضلت عليّ بأكثر مما أملت . أسأل الله أن يقدرني أن أكافئك بالخير . الى الملتقى

* * *

بعد هذه الفزوة الموفّقة ارتاح يوسف نفساً بعض الراحة . لم يبق عنده ريب في أن هذه الذخيرة الذهبية هي هدية له من أمه والدته . ولكن أين هي والدته ؟ ومن هي ؟ لماذا أودعته لقيطاً في الدير ؟ وماذا كانت حياتها . وهل لا تزال حيّة أم سبقته الى عالم الأرواح ؟ هذه الأسئلة صارت في عهدة الزمان . فهل يمكن أن يجاوب عليها الزمان ؟ . كان أمله بهذا ضعيفاً جداً كومضة اليراعة في حلك الليل .
أحسّ يوسف إحساساً قوياً إنه غريب جداً عن جميل المدني وزوجته جميلة . وإنه دخيل في دارهما ، وصار يشعر أنه ثقيل في تلك الدار مهما تلطف أهلها به . لم يذكر لهم شيئاً عن زيارته لرئيسة الدير بتاتاً .
وكان يوسف في السنة الأخيرة في كلية الحقوق . وكان متفوقاً فيها تفوّقاً فوق العادة .

وكان الأساتذة والعميد يحبونه حبًّا جمًّا لذكائه ودماثة أخلاقه وطاعته وحسن سلوكه. وقصد حينئذٍ إلى سعادة عميد الكلية وطلب إليه أن يزوّده بكتاب توصية للأستاذ م. ع. المحامي الكبير لكي يخدم عنده في وقت فراغه ويتمرّن لقاء أجر زهيد، فنتجه العميد بتوصية رفعته الى صف العظماء الأعلام. فما تردّد الأستاذ م. ع. أن قبله كاتبًا عنده بعد الظهر. وما مضت أيام حتى أُعجب به الأستاذ المحامي أي اعجاب وشعر أنه وقع على مساعد نابغة. ولما انتهت الدراسة ونال يوسف الدبلوم صار يعنوان الأستاذ المعتمد عليه. وكان يوسف يعلق مفتاح مكتبه بسلسلة القلب الذي ناله من رئيسة الدير. وكثيرًا ما كانت أصابعه تنعب بالسلسلة كما تلعب عجلة كأنه يجد لذّة في هذا

في ذلك اليوم الذي دخل يوسف في خدمة المحامي وهو لا يزال طالبًا كتب الكتاب التالي الى أبيه: —

« سيدي الأب الحنون المحترم »

« لا يمكنك مهما تطرّحت في التصوّر أن تتصوّر قدر حبي لك ولأمي واحترامي لكما وتقديسي لعطفكما وشكري العظيم لعنايتكما بي مدّة عشرين سنة قضيتها في حجريكما وعند سريريكما إبنًا عزيزًا محبوبًا. ولا أدري ماذا يكون من أمري لو لم يهيء لي القدر الكريم أن أكون في حضانتكما وتحت رعايتكما. لا ريب أني لا أكون في النعمة التي أسبغها عليّ.

فشكرًا لله الذي حرمني من والديّ وأودعني بين أيديكما. تنتهي حياتي عاجلًا أو آجلًا ولا ينتهي تقديري لفضلكما وشكري لعطفكما

كفى ما حملتكما من عبئي. وقد أوشكت أن أعتمد على نفسي في ستر رزقي. فاسمحا لي أن أستقل في معيشتي تخفيفًا لكما من حملي.

تكرّم الأستاذ المحامي الشهير م. ع. فقبلني كاتبًا في مكتبه بعد الظهر قبل أن أتم دراستي. فشكرًا له. لا تستفقداني. فقد أقمت في منزل صغير لائق بين الكلية والمكتب ولا آلو جهدًا في أن أزوركما كلما أتيحت لي الفرصة. أقبل أيديكما خاضعًا طائعًا وأحيي أخي سليم محبًا مشتاقًا. وعمتي جملة محترمًا. ولدكما الطائع.

يوسف

وجمع يوسف « شنطته » وترك هذا الخطاب على مرقده ومضى في غلس الليل.

ما اطلع جميل العدني على هذا الخطاب حتى جنّ جنونه ومضى إلى الكلية قبل انصراف الطلبة منها وأخذ يوسف من بينهم ومضى به إلى مكان منفرد، وجعل تارة

يؤنبه تأنيباً لطيفاً على افتراقه عن أهله . وتارة يتوسل إليه أن يعود الى البيت لأنه ابنهما الحقيقي خلافاً لما أوحته سليم . ولكن يوسف لم يرعو . فأصر على الفراق شاكراً الى أن قال جيل : هب أن ما بلغ اليك صادق الخبر وقد نبذك أبواك . ثم رباك أبوان آخران فمن أذنب إليك ؟

— لا هذان ولا ذانك

— ومن أولى ببنوتك

— لا أحد . وانما لهذين ربياني فضل عظيم لا أنساه ودين علي أعظم أكافئه بجهي حياتي

— أنت تعلم إننا غنيان عن جهي حياتك ، بل بالاحرى نود أن نمنحك شطراً كبيراً من جهي حياتنا . فلمن تمنح حق بنوتك .

— لغير أحد

— إذن أنت ابن لمن .

أنا ابن الطبيعة . فحكم الطبيعة ولدني والداي وبحكم الطبيعة عطف علي أبوان غريبان . الطبيعة خلقت العطف هناء والشهوة هناك . فكلا الفريقين كانا يفقدان منه الطبيعة . الآن أنا ابن الطبيعة .

— حسن . أليس لسنة الطبيعة حق عليك

— بلى لسنة الطبيعة حق على كل إنسان

— ما هو حق الأبوين العطوفين عليك إذن ؟

— حب عميق لقاء عطف شديد . وعندي منه ما يطوع البحر الملتج ويخضع روق الجبل الراسي

— إذن ليس ما يمنعك أن تعود الى المنزل الذي فيه نشأت والحجر الذي فيه ترعرعت . بربك يا بني عد إلى قلوبنا ولا تملأها جمراً نار بفراقك

وقبله جيل فقال يوسف مقبلاً أيضاً : لست بعيداً عنكم يا أبتي إنكم في سويداء قلبي على البعد والقرب . يستحيل أن أنسى القلبين اللذين صنعا مني إنساناً . إسمح لي يا أبي أن أنصرف الى واجباتي . السلام عليك

وترك يوسف أباه مخبولاً

* * *

في آخر الشهر دفع الأستاذ م . ع . ليوسف اثني عشر جنيهاً قائلاً وعدتك أن أعطيك خمسة جنيهات أجراً . ولكني رأيت أن عملك يستحق مضاعف الأجر

فنظر فيه يوسف قائلاً : أمن خمسة جنيهات الى إثني عشر من أول شهر ؟ هذا غير معقول يا أستاذي . وأنا لا أزال طالباً . لا آخذ إلاّ الخمسة التي وعدتني بها . وأنا لا أستحقها وإنما أحسبها صدقة منك

فأخذ عليه الأستاذ فلم يأخذ فقال له : الخمسة لا تكفيك نفقة . فخذ والزيادة احسبها ديناً عليك استوفيه من أجرك في المستقبل حين تنتهي من الدراسة وتتفرغ للعمل وترتفع راتبك .

— الخمسة تكفيني . ولا أريد أن أنفق على حساب الدين . وإن لم يُقدّر لي أن أخدمك في المستقبل فمن يدفع الدين ؟

— أبوك تعهد لي أن يدفعه

فضحك يوسف وقال : أرجو منك يا سيدي الأستاذ أن ترد السبعة الى أبي . لا أريد أن أحمّل أبي ديوني . حسبي ما حمّلته منها في ماضي حياتي

* * *

وحصل يوسف على شهادة الحقوق بامتياز عظيم ، ومكن كرسيه في مكتب الأستاذ م . ع . الشهير . وما مضت أشهر حتى صار يوسف يد الأستاذ اليمنى . وصار يقضي بعض أشغال الزبائن من غير أن يعرضها على أستاذه الاّ منتهية خارج المحكمة ، حتى أعجب به الأستاذ أيما اعجاب وكان محسوداً عليه .

وفي ذات يوم جاءت سيدة الى المكتب لعرض قضية لها فاستقبلها يوسف وأبلغها أن الأستاذ منتدب في الاسكندرية بقضايا وانه في امكانه أن يسمع قضيتها ويقول رأيه فيها.

لا بأس فقد سمعت كثيراً انك تقضي شتى الأشغال بالنيابة عن الأستاذ بنجاح . فيسرني جداً أن تسمع قصتي .

فاعتدل يوسف في مكانه وهو ينبين السيدة وهي في منتصف العمر ، لها مسحة من الجمال لا غبار عليها ولها نضرة من نضرات الشباب ، لم تهب عليها لفحة الكهولة بعد . وقال تكلمي يا سيدتي .

— قصتي قصيرة بسيطة . لي زوج غير شرعي منذ عشرين سنة

فضحك يوسف قائلاً : إذن ليس زوجاً .

— بلى ساكنني معظم هذه السنين مساكنة الزوج للزوجة . وكلما طلبت اليه أن نعقد عقد الزواج راوغ وماطل قائلاً : أما نحن زوجان ؟ ألا يعتبر الزواج إلاّ بعقد ؟ فكنت

أقول له : لا زواج إلاّ بعقد . فنحن خليلان . وهذا ما لا أقبله . ولم أقبله إلاّ بعد وعد. وما زال يعد ثم يماطل . وإذا هجرته يعود فيعد ثم يماطل حتى ضقت ذرعاً . وأخيراً قلت له هذا حال لا أرضى به . إما أن تتزوجني شرعاً، أو أن تدفع لي تعويضاً كافياً عن مساكنتك لي طوال هذه السنين . فأبى الأمرين معاً حتى اضطررت أن آتي اليك مستنجدة .

فقال يوسف محققاً . أما تزوج غيرك ؟

— كلا .

— هل هو غني يستطيع أن يدفع التعويض ؟

— نعم . يمكنه أن يدفع الفين أو ثلاثة أو أكثر ولكنه بخيل بعض البخل .

ففكر يوسف برهة ثم قال : سأستدعيه وأبحث معه وأرى ماذا يكون من أمره . سأكتب له الآن . وأعين له الميعاد بعد الغد بمثل هذا الوقت . ما اسم حضرتك واسمه وعنوانه ؟

— اسمي ليلى النعمانية . واسمه خليل العاطر وعنوانه .....

* * *

في الميعاد جاء خليل العاطر فاستقبله يوسف ببشاشة وتلطف وكان كلٌّ منهما ينظر في الآخر متبيناً . فهذا يرى أمامه فتى في أول الشباب وعلى محياه سمات الخجل الحلو وذاك يرى أمامه رجلاً في شرخ الشباب أنيق الهندام كأنه من الأعيان . وما تردد يوسف في شق الحديث

— أمس الأول كانت السيدة ليلى النعمانية زوجتك هنا . . .

فقاطعه خليل قائلاً : ليست زوجتي يا أستاذ

فضحك يوسف وقال : لا أظنك تقبل على نفسك الشريفة أن يقال إنها خليلتك بعد عشرة عشرين سنة لئلا يقال إنها مومس ولا أظنك ترضى أن تساكن مومساً .

— ولكن لا عقد زواج بيننا .

— لطالما قلت لها لا أهمية لعقد الزواج . إن المساكنة تعتبر عقد زواج وقد ساكنتها ما يقارب العشرين سنة فلم تبق قيمة لعقد الزواج . وأنت لم تجعل لعقد الزواج قيمة . فهل تريد أن تطلقها ؟

— هي لا تريد أن تطلقني . وأما أنا فلا بأس عندي أن نبقى كما نحن .

— لا بأس من هذا وهي لا تمانع، وانما تريد أن تضمن سنداً لمستقبلها . قد يأتي يوم

تكون فيه وحدها في الدنيا لا معين لها . فهل يوافق ضميرك أن تتركها للفقر والبؤس .

فتململ الرجل كأنه أمسك بخناقه وحار فيما يجيب . ثم قال بعد تردد : ما دمت أنا في قيد الحياة فلا تخاف بؤساً .

— وإذا أفلتُّ من قيد الحياة ؟ هل بينك وبين عزرائيل عقود وعهود .

— ولكن ...

— لا لكن في الأمر . سواء عقدت زواجاً بها أو بقيت خليلاً لك فعليك أن تعطيها مالاً يؤمنها على نفسها . وإذا كان في وسعها أن تأتي بشهود على ما كنتك لها مدة عشرين سنة . فالمحكمة تحكم لها بربع ثروتك بحيث لا يقل الربع عن أربعة آلاف جنيه . فالأفضل ألاَّ تقع قضيتكما بين يدي القاضي العادل . وإذا منحتها هذا الحق فيصبح خيراً لك أن تتزوجها شرعاً .

فوقع خليل في حيص بيص وقال : والله ما أحب الى نفسي من أن تكون زوجتي شرعاً . وكنت قد وعدتها بالزواج اذا ولدت غلاماً . فولدت الغلام ثم دهورته . إذن فهي قد أضاعت حقها بسوء عملها .

حينئذٍ برزت ليلى من الباب لأنها كانت منتظرة وراءه تسمع الحديث بحسب تعليمات المحامي . وقالت حرام عليك أن تبرىء نفسك بالكذب . عرفت أني حامل ثم ولدت صبيًّا فجفوتَ وتركتني أمًّا لا عون لها ولا مال ولا رضى أهل . فماذا تنتظر أن أعمل غير اني أتخلص من الطفل لكي أسعى الى تحصيل رزقي .

— أما رجعت اليك ولتك على دهورة الطفل وطلبت اليك أن تستردها ليكون لنا أقوى من عقد الزواج .

— وقد عمتُ جيداً أني بحثت عن الطفل حيث أودعته فعلمت انه صار بين أيدي أناس يربونه ويعنون به . ولكنهم لم يتركوا خبراً عنهم لأنهم لا يريدون أن يردوا الطفل . لقد غاب الطفل في عالم الغيب وأنت الملوم .

وكانت ليلى لا ترد بصرها عن السلسلة التي تتلاعب بها أنامل المحامي يوسف كل الوقت فطمحت أن تتناولها منه . ولكنها خشيت أن تفعل . وما لبثت أن تجرأت وقالت . ماذا في هذا القلب المعلق بالسلسلة يا أستاذ ؟ أرسم حبيبة لك ؟

فأجفل يوسف . ونظر في القلب وقال . حقًّا لا أدري ماذا فيه ، ولا خطر في بالي أن يكون فيه شيء . فقالت ليلى بصوت متهدج : أما أنا فأؤكد لك أن فيه صورة عاشقة لك . أما هو هدية من حسناء . افتحه وانظر .

فتناول يوسف مدية واحتال على حرف القلب وشقه فخرجت منه وريقة صغيرة عليها صورة حسناء. فخفق قلبه. وخفق قلب ليلى.

وقالت: ألم أقل لك ان فيه رسماً لحبيبة عاشقة

وتقدمت اليه وخطفت منه الصورة وقالت أتعرف صورة من هذه

— لا

أنا أعرف. هي صورة من تذوب شوقاً اليك. أنظر فيّ وفيها

فبهت يوسف وارتمت عليه تقبله: «ولدي ولدي». فصدها بلطف قائلاً: مهلاً ياسيدتي. بيننا حساب يجب أن نصفيه

— ويحي. انك من لحمي ودمي

— ولكني لست من روحك. أظن انك والدتي ولكنك لست أمي.

ومدّ خليل يده ليصافحه قائلاً، لقد تمّ العقد الشرعي بيننا الآن يا ليلى. انت زوجتي الشرعية منذ الساعة. إليّ يا ولدي.

فامتنع يوسف أن يمد له يداً وقال: قد تكون والدي ولكنك لست أبي. كنتما والديّ في شهوة ساعة وانقضت. ثم صار لي أبوان في حب عشرين سنة. فليست بنوّتي لكما بل لحاضنين غمراني بالحب والحنو واللهفة.

فقالت ليلى: ويلي. لقد ذبنا شوقاً اليك وبقوة الحب كنا نطلبك فلا نجدك. رحمة يا بنيّ

— عن طلبتماني؟ أمن القدر الناقم. كان يجب أن تطلباني من الطبيعة اليقظة. أنا ابن الطبيعة. الطبيعة كالوالد يوم تشع الحب الى الأبد. وأما القدر الأعمى فهو قبر الحب.

فقال خليل: لقد بُعث حبنا الآن يابني وانفجر شوقنا وسطع شعاعه كضوء الشمس واحتدمت حرارته كحرارتها.

فضحك يوسف وقال: أين كان غائباً في العشرين سنة الغابرة فلم ينفجر؟ تكاد جمراته تنطفئ. فلم يبق بيننا حبٌ يا والديّ. وانما بقي بيننا احترام واكرام.

قالها بغصة وجنح الى غرفة أخرى كي يخفي تأثره فيما كانت ليلى تقول له خارقة دموع الحنو الوالدي: لا أطيق يا بني أن تكون قاسياً علينا الى حد الجفاء المطلق بل تسمح لنا ببعض أوقات لنتمتع فيها بلقائك.

— لكما ذلك.

وبقبلات تشفي الغليل ودّعاه.